

ثمن الحلم

قصة قصيرة

أحسن هلال *

(في مجتمعاتٍ يُثقلها الفقر وتضيق فيها سبلُ الفرص، يُدفع الأطفال أحيانًا إلى تحمّل أعباءٍ تفوق أعمارهم. تتحوّل الأحلام البسيطة إلى رهاناتٍ محفوفةٍ بالمخاطر، ويغدو الأملُ طريقًا تترتبُ به الخسارة. ليست هذه القصة عن مدينةٍ بعيدةٍ فحسب، بل عن قلبٍ صغير خرج ليرعى أسرته، فابتلعتة قسوةُ الواقع قبل أن يكتمل حلمه. إنها حكاية طفل... حين يكون الثمنُ أفتح من الاحتمال.)

كان اسمُ زين يتردّد في البيت كنبضٍ يومي لا يهدأ؛ ينادى به في الفرح والقلق، في الصباح والمساء. فتى في الرابعة عشرة، نحيل الجسد، واسع العينين، يحمل في داخله حماسةً تفوق سنّه وفضولًا لا يخبو. أدرك مبكرًا أنه ليس كغيره؛ فهو الأخ الوحيد لخمسة أخوات، والابن الذكر الوحيد لوالديه، فاستقرّ في قلبه إحساسٌ ثقيل بالمسؤولية. كان يشعر- من دون أن يقول- أنه السند حين تميل الكفّة، والحامي حين تضيق السبل، واليد التي تمتد حين تعجز الأيدي الأخرى.

* باحث الدكتوراه في مركز الدراسات العربية والأفريقية، بجامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي.

كان والده حملاً، يقضي نهاره في حمل الأحجار ورفع الجدران، ويعود مع الغروب ويدها متشققتان وظهره مثقل بالتعب. لم يكن يشكو، لكن صمته كان أبلغ من الشكوى. هذا المشهد اليومي نقش في نفس زين معنى الكدح، وعلمه أن لقمة العيش لا تُنال بلا ثمن. كان يرى والده جداراً آخر؛ لا يحمي البيوت فحسب، بل يحاول أن يحمي أسرته من الانكسار.

عاشت الأسرة في قرية نائية، بعيدة عن صخب المدن، حيث يمضي الزمن ببطء، والفرص شحيحة، والموارد محدودة. ومع الفقر، كان هناك هدوء غريب يلف المكان، أشبه برضا هش، لا يمنع القلق من التسرب إلى القلوب.

ولم يزر أحد منهم المدينة يوماً. كانت المدينة فكرة أكثر منها مكاناً، صورة تُبنى من حكايات العائدين: عمارات شاهقة، ومطاعم فخمة، وقطارات سريعة، ومصانع لا تنام. عالم آخر لامع وغامض، يثير الإعجاب بقدر ما يثير الريبة. كانت حلماً، وفي الوقت نفسه لغزاً.

كان والدا زين يصغيان لتلك الحكايات، فيمتزج في عيونهما الإعجاب بالدهشة. ومع الأيام، بدأت فكرة إرسال زين إلى المدينة تتسلل إلى حديثهما؛ خصوصًا بعد أن رأيا بعض أبناء القرية يعودون بمبالغ تُخفف عن أسرهم ثقل العيش. كانت الأم تجمع من قصص النساء اللواتي زرن المدينة خيوطًا من أملٍ وخوف، وتفكر في بناتها وزواجهن القريب، وفي العجز الذي يقف حاجزًا أمام ذلك. لم يكن القرار سهلًا، لكنه بدا-في نظرهما-المخرج الوحيد.

كان زين يسمع تلك الأحاديث في صمت. لم يُستشر صراحة، لكنه فهم كل شيء. وفي لحظة امتزج فيها الحماس بالخوف، قال ببساطة: «سأذهب». لم يكن مستعدًا تمامًا، لكنه آمن أن عليه أن يفعل شيئًا. كانت موافقته صادقة، نابغة من حب عميق لعائلته، ومن رغبة صامتة في أن يكون نافعًا-مهما كان الثمن.

جاء يوم الوداع، فتحوّل البيت الصغير إلى خلية من المشاعر. اجتمعوا حول عشاءٍ خاص أعدته الأم بعناية، كأنها تريد أن تختزن

في الطعام دفء البيت كله. ضحكات تختلط بدموع، وصمت أحيانًا أبلغ من كل كلام.

في صباح الرحيل، اغتسل زين وارتدى ملابسها التي كُويت بعناية. جهزت أختها الكبيرة زاد السفر، ومشطت الأخرى شعره ودهنته، أما الصغرى فكانت تراقبه بعينين ممتلئتين بحب لا يفهم الرحيل، لكنه يشعر بثقله. قبل الخروج، أعطاه والده مبلغًا صغيرًا، وضعه في جيبه الداخلي كأنه يضع معه جزءًا من قلبه. ثم جاءت الأم، وحلت عقدة وشاح قديم كانت تخبئ فيه نقودًا منذ زمن، وقدمته له بصمتٍ مرتجف.

عند طرف الشارع، وقفوا ينتظرون الحافلة. كانت الأم توصيه بصوتٍ خافت:

"كن حذرًا يا بني... واعتني بنفسك"

وكان زين يهز رأسه مطمئنًا، يحاول أن يبدو أقوى مما هو عليه. حين ظهرت الحافلة، صاحت أخته الصغيرة بفرح مشوب بالحزن. عانقهم واحدًا واحدًا، ثم صعد بخطواتٍ ثقيلة. لم يستطع أن

يرى أمه جيدًا وسط الزحام, لكن قلبه كان يشعر بدموعها وهي تبلى أطراف الدعاء.

في الطريق, كان زين يُحدّق من نافذة الحافلة, يرى العالم يتسع أمامه. تخيل المدينة كما سمعها: أضواءً لا تنطفئ, وفرصًا تنتظره, وعودةً يحمل فيها ما يُفرح أسرته. لم يكن يعرف أن الطريق قد يختصر الأحلام.

مرّ يومان فقط... لا أكثر.

ثم جاء الخبر.

وصلت الأنباء كالصاعقة: اندلعت أعمال عنف في المدينة, وكان زين أحد ضحاياها. لم تصل التفاصيل, ولم تعد مهمة. المهم أن زين لن يعود. عم البيت صمّت ثقيل, صمّت يشبه الفراغ بعد انطفاء الضوء. لم تنم الأم, ولم يتكلم الأب. بدا البيت كأن روحه قد غادرت مع الفتى الصغير.

تحوّلت القرية كلّها إلى مأتم. أدرك الجميع, متأخرين, أن الأحلام قد تكون قاسية, وأن المدينة التي قدّمت وعدًا بالخلاص قد

تُخفي وجوهًا مظلمة. بقي اسم زين يتردد في البيت، في
الطرق، وفي الدعاء—ذكرى لفتى حمل فوق كتفيه ما لا
يُحتمل، ودفع ثمن حلمٍ لم يكتمل.

وظلّ السؤال معلقًا في الهواء:

هل كان زين ضحية الفقر؟

أم ضحية الأمل؟

أم ضحية مجتمع لا يرى الأطفال... إلا حين يفقدهم؟

